تفسير سورة الكهف

فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ

الجزء التاسع

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فيقول الله -تبارك وتعالى -في هذه السورة الكريمة سورة الكهف:

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿83﴾﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها: أنَّه لَمَّا فرَغَ اللهُ تعالى مِن قِصَّةِ موسى والخَضِر -عليهما السَّلامُ- التي حاصِلُها أنَّها طَوافٌ في الأرضِ لطَلَبِ العِلمِ؛ عَقَّبَها بقِصَّةِ مَن طاف الأرضَ لطَلَبِ الجِهادِ، وقدَّم الأُولَى إشارةً إلى علوِّ دَرَجةِ العِلمِ؛ لأنَّه أساسُ كُلِّ سَعادةٍ، وقِوامُ كُلِّ أمرٍ. ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/١٢٨).

(وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ) أي: ويَسألُك الكُفَّارُ -يا محمَّدُ- عن شَأنِ ذي القَرنَينِ وخَبَرِه. موسوعة التفسير

(قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا) أي: قُلْ -يا محمَّدُ- لِمَن سألَك عن ذي القَرنَينِ: سأقُصُّ عليكم بعضَ أخبارِه مِمَّا يكونُ فيها ذِكرى وعِبرةٌ وعِظةٌ. موسوعة التفسير

قال ابن كثير: يَقُولُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ ﷺ: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ﴾ يَا مُحَمَّدُ ﴿عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ﴾ أَيْ: عَنْ خَبَرِهِ. وَقَدْ قَدَّمْنَا أَنَّهُ بَعَثَ كُفَّارُ مَكَّةَ إِلَى أَهْلِ الْكِتَابِ يَسْأَلُونَ مِنْهُمْ مَا يَمْتَحِنُونَ بِهِ النَّبِيَّ ﷺ، فَقَالُوا: سَلُوهُ عَنْ رَجُلٍ طَوَّافٍ فِي الْأَرْضِ، وَعَنْ فِتْيَةٍ لَا يُدْرَى مَا صَنَعُوا، وَعَنِ الرُّوحِ، فَنَزَلَتْ سُورَةُ الْكَهْفِ.

قال ابنُ عاشور: (السائلون: قريشٌ لا محالةَ، والمسؤول عنه: خبرُ رجلٍ مِن عظماء العالَمِ عُرِفَ بلَقَبِ ذي القرنين، كانت أخبارُ سيرته خفيَّةً مُجمَلةً مُغلَقةً، فسألوا النبيَّ عن تحقيقِها وتفصيلِها، وأذِنَ له الله أن يبيِّنَ منها ما هو موضِعُ العبرة للناسِ في شؤون الصلاحِ والعدل، وفي عجيبِ صنعِ الله تعالى في اختلافِ أحوال الخَلقِ).

لماذا سمي بذي القرنين: قال البقاعي: (ذو القَرنَين: سُمِّي لشَجاعتِه، أو لبلوغِه قَرنَيْ مَغرِب الشَّمسِ ومَشرِقِها، أو لانقراضِ قرنينِ مِن النَّاسِ في زمانِه، أو لأنَّه كان له ضفيرتانِ مِن الشَّعرِ، أو لتاجه قرنانِ).

قال أهل العلم: وهو ملِكٌ صالح أعطي العلم والحكمة، سمي بذي القرنين لأنه ملك مشارق الأرض ومغاربها وكان مسلماً عادلاً.

قال القاسمي: الاعتبارُ بتخليدِ جميلِ الثَّناءِ، وجليلِ الآثارِ؛ فإنَّ مَن أنعَمَ النَّظَرَ فيما قُصَّ عنه في هذه الآياتِ الكريمةِ يتَّضِحُ له جَليًّا حُسنُ سجاياه، وسموُّ مزاياه: من الشَّجاعةِ، وعلوِّ الهِمَّةِ، والعِفَّةِ، والعدلِ، ودأبِه على توطيدِ الأمنِ، وإثابتِه المحسنينَ، وتأديبِه للظَّالمينَ.

﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴿84﴾

(إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ) إنَّا وطَّأْنا ومهَّدْنا لذي القَرنَينِ الملكَ في الأرضِ، فأقدَرْناه على ذلك، وقوَّيناه بكَثرةِ الجُنودِ وآلاتِ الحَربِ، وحُسنِ التدبيرِ، وبسْطِ الهَيبةِ، وغيرِ ذلك. موسوعة التفسير

كما قال تعالى: (وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ) [البقرة: 247].

وقال سُبحانَه: (قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) [آل عمران: 26].

قال ابن كثير: أَعْطَيْنَاهُ مُلْكًا عَظِيمًا مُتَمَكِّنًا، فِيهِ لَهُ مِنْ جَمِيعِ مَا يُؤْتَى الْمُلُوكُ، مِنَ التَّمْكِينِ وَالْجُنُودِ، وَآلَاتِ الْحَرْبِ وَالْحِصَارَاتِ؛ وَلِهَذَا مَلِكَ الْمَشَارِقَ وَالْمَغَارِبَ مِنَ الْأَرْضِ، وَدَانَتْ لَهُ الْبِلَادُ، وَخَضَعَتْ لَهُ مُلُوكُ الْعِبَادِ، وَخَدَمَتْهُ الْأُمَمُ، مِنَ الْعَرَبِ وَالْعَجَمِ؛ وَلِهَذَا ذكر بَعْضُهُمْ أَنَّهُ إِنَّمَا سُمِّيَ ذَا الْقَرْنَيْنِ؛ لِأَنَّهُ بَلَغَ قَرْنَيِ الشَّمْسِ مَشْرِقَهَا وَمَغْرِبَهَا.

قال سليمان اللهيميد: أول التمكين العلم، إذا أراد الله بأصحاب النفوذ والسلطة خير، أعطاهم العلم والحكمة، قبل المال والجاه، لأنه من كان جاهلا، أضل واذل وبطش في الارض بغير حق، وهذا يصدقه قول الله تعالى في اصطفائه لطالوت:(وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوا أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ ۖ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (247)

⇦أذن جاء عدل ذو القرنين، لعطاء الله له العلم والحكمة قبل المال والجاه، وهذا اساس تمكين الله لعباده الصالحين قال تعالى (الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ) (41) الحج

الاعتبار برفع الله بعض الناس درجات على بعض، بالعلم والحكمة، لا بالمال والملك والجاه المعرى من العلم، لان هذه الحالة سبيل الذل لا الرفعة، كما فرعون وهامان وقارون، وهذا فضل الله يؤتيه يشاء بغير حساب والله واسع عليم.

(وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا) أي: وآتَيناه مِن كُلِّ شَيءٍ يحتاجُ إليه مِثلُه مِن علمٍ أو قدرةٍ أو آلةٍ؛ حتَّى يصلَ به إلى مقصودِه مِن فَتحِ الأقاليمِ، وكَسرِ الأعداءِ، والتمكينِ في الأرضِ إلى غيرِ ذلك. موسوعة التفسير

﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿85﴾

(فَأَتْبَعَ سَبَبًا) أي: فسار ذو القرنينِ في طَريقٍ آخذًا بالأسبابِ والوسائِلِ التي تُوصِلُه إلى مَقصودِه. موسوعة التفسير

قال القاسمي: الإشارةُ إلى القيامِ بالأسبابِ، والجريِ وراءَ سُنَّةِ الله في الكَونِ مِن الجِدِّ والعَمَلِ، وأنَّ على قَدْرِ بَذلِ الجُهدِ يكونُ الفوزُ والظَّفَرُ.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغۡرِبَ ٱلشَّمۡسِ وَجَدَهَا تَغۡرُبُ فِي عَيۡنٖ حَمِئَةٖ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوۡمٗاۗ قُلۡنَا يَا ذَا ٱلۡقَرۡنَيۡنِ إِمَّآ أَنۡ تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَنۡ تَتَّخِذَ فِيهِمۡ حُسۡنٗا ﴿86﴾﴾

(حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغۡرِبَ ٱلشَّمۡسِ وَجَدَهَا تَغۡرُبُ فِي عَيۡنٖ حَمِئَةٖ) أي: سار ذو القرنَين إلى أن بلغَ أقصى موضِعٍ يُمكِنُ سُلوكُه مِن اليابِسةِ مِن الجِهةِ الغَربيَّةِ للأرضِ، فوجد الشَّمسَ تَغرُبُ -في ناظِرَيه- في بحرٍ ذي طينٍ أسودَ مُنتِنٍ، فرآها وكأنَّها تَغرُبُ في ذلك البحرِ. موسوعة التفسير

قال الشنقيطي: (المرادُ بالعين في الآية: البحرُ المحيط، وهو ذو طينٍ أسوَدَ، والعينُ تُطلَقُ في اللغةِ على ينبوعِ الماءِ، والينبوعُ: الماءُ الكثير، فاسمُ العينِ يَصدُقُ على البحر لغةً، وكونُ مَن على شاطئِ المحيط الغربيّ يرى الشَّمسَ في نَظَرِ عَينِه تَسقُطُ في البحرِ؛ أمرٌ معروف). ((أضواء البيان)) (341/3).

قال السعدي: حتى رأى الشمس في مرأى العين كأنها تغرب في عين حمئة: أي سوداء، وهذا هو المعتاد لمن كان بينه وبين أفق الشمس الغربي ماء، رآها تغرب في نفس الماء، وإن كانت في غاية الارتفاع.

قال ابن كثير: ثُمَّ سَلَكَ طَرِيقًا فَسَارَ مِنْ مَغْرِبِ الشَّمْسِ إِلَى مَطْلَعِهَا، وَكَانَ كُلَّمَا مَرَّ بِأُمَّةٍ قَهَرَهُمْ وَغَلَبَهُمْ وَدَعَاهُمْ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَإِنْ أَطَاعُوهُ وَإِلَّا أَذَلَّهُمْ وَأَرْغَمَ آنَافَهُمْ، وَاسْتَبَاحَ أَمْوَالَهُمْ، وَأَمْتِعَتَهُمْ وَاسْتَخْدَمَ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ مَا يَسْتَعِينُ بِهِ مَعَ جُيُوشِهِ عَلَى أَهْلِ الْإِقْلِيمِ الْمُتَاخِمِ لَهُمْ. وَذُكِرَ فِي أَخْبَارِ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ عَاشَ أَلْفًا وَسِتَّمِائَةِ سَنَةٍ يَجُوبُ الْأَرْضَ طُولَهَا وَالْعَرْضَ حَتَّى بَلَغَ الْمَشَارِقَ وَالْمَغَارِبَ.

قال ابن كثير: هناك قراءة أخرى [فِي عَيْنٍ حَامِيَةٍ] وَلَا مُنَافَاةَ بَيْنَ مَعْنَيَيْهِمَا، إِذْ قَدْ تَكُونُ حَارَّةً لِمُجَاوَرَتِهَا وَهْجَ الشَّمْسِ عِنْدَ غُرُوبِهَا، وَمُلَاقَاتِهَا الشُّعَاعَ بِلَا حَائِلٍ وَ ﴿حَمِئَةٍ﴾ فِي مَاءٍ وَطِينٍ أَسْوَدَ، كَمَا قَالَ كَعْبُ الْأَحْبَارِ وَغَيْرُهُ.

(وَوَجَدَ عِندَهَا قَوۡمٗا) أي: ووجد ذو القَرنَين عندَ تلك العَينِ على ساحِلِ البَحرِ أُمَّةً مِن الأُمَمِ. موسوعة التفسير

قال الشوكاني: وكانوا كفاراً فخيره الله بين أن يعذبهم وبين أن يتركهم فقال:

(قُلۡنَا يَا ذَا ٱلۡقَرۡنَيۡنِ إِمَّآ أَنۡ تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَنۡ تَتَّخِذَ فِيهِمۡ حُسۡنٗا) أي: قُلْنا: يا ذا القَرنَين، إمَّا أن تُعَذِّبَ مَن أصَرَّ منهم على الكُفرِ، وإمَّا أن تُحسِنَ إليهم. موسوعة التفسير

قال ابن كثير: مَعْنَى هَذَا: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى مَكَّنَهُ مِنْهُمْ وَحَكَّمَهُ فِيهِمْ، وَأَظْفَرَهُ بِهِمْ وَخَيَّرَهُ: إِنْ شَاءَ قَتَلَ وَسَبَى، وَإِنْ شَاءَ مَنَّ أَوْ فَدَى. فَعُرِفَ عَدْلُهُ وَإِيمَانُهُ فِيمَا أَبْدَاهُ عَدْلَهُ وَبَيَانَهُ.

﴿قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوۡفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابٗا نُّكۡرٗا ﴿87﴾﴾

(قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوۡفَ نُعَذِّبُهُۥ) أي: قال ذو القرنَين: أمَّا مَن ظلَمَ نَفسَه بالإصرارِ على الكُفرِ بعد دَعوتِه للحقِّ، فسوف نُعَذِّبُه. موسوعة التفسير

قال أبو السعود: قال ذو القرنين ذلك الكلامَ لمن عندَه مِن خواصِّه وأهلِ مشورتِه. وقيل: قاله للنبيِّ الذي خاطَبه الله على لسانِه.

(ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابٗا نُّكۡرٗا) أي: ثُمَّ يَرجِعُ الكافِرُ بعد تعذيبِنا له في الدُّنيا إلى رَبِّه، فيُعَذِّبُه عذابًا فَظيعًا شَديدًا. موسوعة التفسير

قال الطبري: عن قَتَادَة، فِي قَوْله: (أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبهُ) قَالَ: هُوَ الْقَتْل. ' وَقَوْله:(ثُمَّ يُرَدّ إِلَى رَبّه فَيُعَذِّبهُ عَذَابًا نُكُرًا) يَقُول: ثُمَّ يَرْجِع إِلَى اللَّه تَعَالَى بَعْد قَتْله، فَيُعَذِّبهُ عَذَابًا عَظِيمًا، وَهُوَ النُّكُر، وَذَلِكَ عَذَاب جَهَنَّم.

قال ابن كثير: شَدِيدًا بَلِيغًا وَجِيعًا أَلِيمًا. وَفِيهِ إِثْبَاتُ الْمَعَادِ وَالْجَزَاءِ.

﴿وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿88﴾﴾

(وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَىٰ) أي: وأمَّا مَن آمنَ بعدَ كُفرِه، وعَمِلَ بطاعةِ اللهِ مُخلِصًا له وَحدَه لا شَريكَ له؛ فله في الآخرةِ الجَنَّةُ ثوابًا على إيمانِه وعَمَلِه الصَّالِحِ. موسوعة التفسير

(وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا) أي: وسنُلطِفُ له القَولَ ونُليِّنُه في الدُّنيا، ونُعَلِّمُه ما تيسَّرَ تعليمُه مِن الخيرِ، ونُعامِلُه باليُسرِ، ونُحسِنُ إليه. موسوعة التفسير

﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿89﴾﴾

(ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا) أي: ثمَّ سار ذو القرنَينِ في طريقٍ آخَرَ آخِذًا بالأسبابِ والوسائِلِ؛ كي يصِلَ إلى جهةِ المشرِقِ موسوعة التفسير.

﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا ﴿90﴾﴾

(حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ) أي: سار ذو القَرنَينِ إلى أن بلغ أقصى مَوضِعٍ يُمكِنُ سُلوكُه من الجِهةِ الشَّرقيَّةِ للأرضِ، حيث تَطلُعُ الشَّمسُ. موسوعة التفسير.

(وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا) أي: فوجد الشَّمسَ تَطلُعُ على قَومٍ ليس لهم شيءٌ يُظِلُّهم منها؛ من جَبَلٍ أو شَجَرٍ أو بِناءٍ. موسوعة التفسير.

قال ابن كثير: لَيْسَ لَهُمْ بِنَاءٌ يُكِنُّهُمْ، وَلَا أَشْجَارٌ تُظِلُّهُمْ وَتَسْتُرُهُمْ مِنْ حَرِّ الشَّمْسِ.

وقال الرازي: القَوْلُ الثَّانِي: أَنَّ مَعْنَاهُ أَنَّهُ لا ثِيابَ لَهم ويَكُونُونَ كَسائِرِ الحَيَواناتِ عُراةً أبَدًا.

﴿كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿91﴾﴾

(كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا) أي: كذلك، وقد عَلِمْنا ما لدى ذي القرنَينِ مِن الجُندِ والأموالِ، والآلاتِ وأسبابِ المُلكِ والقُوَّة، فلم يَخْفَ علينا شيءٌ مِن ذلك. موسوعة التفسير.

وقال الزجَّاجُ: يجوزُ أن يكونَ التَّقديرُ: وجَدَها تطلُعُ على قَومٍ كذلك القَبيلِ الذين كانوا عند مغربِ الشَّمسِ، وأنَّ حُكْمَهم حُكمُ أولئك.

﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿92﴾﴾

(ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا) أي: ثمَّ سار ذو القَرنَينِ في طريقٍ ثالثٍ آخِذًا بالأسبابِ والوسائِلِ؛ لِيَبلُغَ الجِهةَ التي يُريدُها. موسوعة التفسير.

﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿93﴾

(حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ) أي: سار إلى أن بلَغَ مَوضِعًا بين جبَلَينِ. موسوعة التفسير

(وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا) أي: وجد ذو القرنين مِن دُونِ الجبَلَينِ، قومًا لا يَكادونَ يَفهمونَ ما يُقالُ لهم بغيرِ لُغتِهم. موسوعة التفسير.

قال البقاعي: (وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا أي: بقُربِهما من الجانِبِ الذي هو أدنَى منهما إلى الجِهةِ التي أتَى منها ذو القَرنَينِ). ((نظم الدرر)) (133/12).

قال القاسمي: (لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا) لكون لغتهم غريبة مجهولة ولقلة فطنتهم.

واختلف في مكان هذا السد على أقوال لا يصح منها شيء، لأنه لم يرد في الكتاب والسنة تعيينه، فلا ينبغي الانشغال به.

﴿قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿94﴾

(قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ) أي: قال أولئك القَومُ: يا ذا القَرنَينِ، إنَّ يأجوجَ ومأجوجَ يَخرُجونَ مِن بينِ السَّدَّينِ، فيُفسِدونَ في أرضِنا بالقَتلِ والنَّهبِ والتَّخريبِ، وغيرِ ذلك مِن وُجوهِ الإفسادِ. موسوعة التفسير.

قال ابنُ عثيمين: هاتان قبيلتانِ مِن بني آدَمَ، كما صحَّ ذلك عن النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم... وبهذا نعرِفُ خطأَ من قال: إنهم ليسوا على شَكلِ الآدميِّينَ، وأنَّ بَعضَهم في غايةِ ما يكونُ مِن القِصَر، وبعضَهم في غايةِ ما يكونُ مِن الطولِ، وأنَّ بَعضَهم له أذنٌ يَفترِشُها، وأذنٌ يلتَحِفُ بها، وما أشبهَ ذلك، كلُّ هذا مِن خرافاتِ بني إسرائيل! ولا يجوزُ أن نصَدِّقَه.

يأجوج ومأجوج قبيلتان من بني آدم من ذرية آدم وحواء كما في الحديث عن أبي سَعيدٍ الخُدريِّ رَضِيَ الله عنه، عن النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال:(يقولُ اللهُ تعالى: يا آدَمُ، فيقولُ: لبَّيك وسَعدَيك، والخيرُ في يَدَيك، فيقولُ: أخرِجْ بَعْثَ النَّارِ، قال: وما بَعثُ النَّارِ؟ قال: مِن كُلِّ ألفٍ تِسعَمائةٍ وتِسعةً وتسعينَ! فعنده يَشيبُ الصَّغيرُ، وتَضَعُ كُلُّ ذاتِ حَملٍ حَمْلَها، وترى النَّاسَ سُكارى وما هم بسُكارى، ولكِنَّ عذابَ اللهِ شَديدٌ! قالوا: يا رسولَ اللهِ، وأيُّنا ذلك الواحِدُ؟! قال: أبشِروا؛ فإنَّ منكم رجُلًا، ومِن يأجوجَ ومأجوجَ ألفًا) متفق عليه.

قال ابن كثير: هم من ذرية آدم بلا خلاف نعلمه، وهم يشبهون الناس، كأبناء جنسهم، ومن زعم أن منهم الطويل كالنخلة ومنهم القصير الذي هو كالشيء الحقير ومنهم من يفترش أذناً من أذنيه ويتغطى بالأخرى، فكل هذه الأقوال بلا دليل، ورجم بالغيب بغير برهان، والذي تدل عليه الروايات الصحيحة أنهم رجال أقوياء لا طاقة لأحد بقتالهم.

(فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا) أي: فهل نجعَلُ لك يا ذا القَرنَينِ أُجرةً أو جُعلًا مِن أموالِنا على أن تبنيَ لنا حاجِزًا بيننا وبين يأجُوجَ ومأجوجَ، فلا يُمكِنَهم الوصولُ إلينا. موسوعة التفسير

﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿95﴾

(قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ) أي: قال ذو القَرنَينِ: الذي بَسَطَه لي ربِّي مِن الملكِ والعِلمِ، والقُوَّةِ والقُدرةِ والأموالِ؛ خَيرٌ مِن المالِ الذي تَعرِضونَه عليَّ. موسوعة التفسير

كما قال تعالى: (فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ) [النمل: 36].

أنَّ على الملكِ التعفُّفَ عن أموالِ رعيَّتِه، والزُّهدَ في أخذِ أُجرةٍ في مُقابلةِ عَمَلٍ يأتيه –ما أغناه اللهُ عنه– ففي ذلك حِفظُ كرامتِه، وزيادةُ الشَّغَفِ بمحبَّتِه، كما تأبَّى ذو القرنين؛ تفَضُّلًا وتكَرُّمًا. القاسمي

(فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا) أي: قال ذو القَرنَينِ: فأعينُوني برِجالٍ أقوياءَ يُحسِنونَ العَمَلَ، وبآلاتٍ للبناءِ؛ أجعَلْ بينكم وبينَ يأجوجَ ومأجوجَ حاجِزًا مَنيعًا وقَويًّا. موسوعة التفسير

⇦أي لا حاجة لي بالمال، فأعينوني بالأيدي والرجال.

⇦والردم: حاجز الحائط والسدّ، إلا أنه أمنع منه وأشد. الطبري

⇦والردم هو: ما جعل بعضه على بعض حتى يصبح كالحجاب المنيع، فالردم أكبر من السد.

﴿آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾ ﴿96﴾

(آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ) أي: قال ذو القَرنَينِ للقَومِ الذين سألوه بناءَ السَّدِّ: أعطوني قِطَعَ الحَديدِ الضَّخمةَ وناوِلونيها. موسوعة التفسير

(حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا) أي: فلمَّا جاؤوه بقِطَعِ الحَديدِ الكَبيرةِ، وغطَّى بها ذو القَرنَينِ المنفَذَ بينَ الجَبَلَينِ حتَّى حاذَى بذلك البناءِ رُؤوسَهما؛ قال للعُمَّالِ: انفُخوا النَّارَ بالآلاتِ على قِطَعِ الحديدِ. موسوعة التفسير

⇦الصدفين: جانبا الجبل.

(حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ) أَيْ: وَضَعَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ مِنَ الْأَسَاسِ حَتَّى إِذَا حَاذَى بِهِ رُءُوسَ الْجَبَلَيْنِ طُولًا وَعَرْضًا. ابن كثير

﴿قَالَ انْفُخُوا﴾ أَيْ: أَجَّجَ عَلَيْهِ النَّارَ حَتَّى صَارَ كُلُّهُ نَارًا. ابن كثير

(قَالَ انفُخُوا) للعملة (انفخوا) على هذه الزُّبَر بالكيران. الشوكاني

مُشاطَرَةُ المِلكِ العُمَّالَ في الأعمالِ، ومُشارفتُهم بنفسِه إذا اقتضى الحالُ؛ تنشيطًا لهِمَّتِهم، وتجرئةً لهم، وترويحًا لقُلوبِهم، وقد كان ذو القرنين يقاسِمُ الرِّجالَ الأتعابَ، ويديرُ العَمَلَ بنَفسِه. القاسمي

(حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا) أي: فنَفَخوا حتى جعل ذو القَرنَينِ الحديدَ نارًا، فقال: أعطوني نُحاسًا ذائِبًا أَصُبُّه على الحديدِ المحْمَى. موسوعة التفسير

(حَتَّى إذا جَعَلَهُ نارًا) أيْ: جَعَلَ ذَلِكَ المَنفُوخَ فِيهِ – وهو الزُّبَرُ – نارًا أيْ: كالنّارِ في حَرِّها. وإسْنادُ الجَعْلِ إلى ذِي القَرْنَيْنِ مَجازٌ لِكَوْنِهِ الآمِرَ بِالنَّفْخِ. الشوكاني

(قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْراً) أي أعطوني أصبُّ عليه فأفرغ النُّحاس المذاب على الحديد المحمى حتى التصق بعضه ببعض. الوجيز

⇦القِطْرُ النُّحاسُ الذّائِبُ، والإفْراغُ: الصَّبُّ. الشوكاني

قال السعدي: أي: نحاسا مذابا، فأفرغ عليه القطر، فاستحكم السد استحكاما هائلا، وامتنع من ورائه، من الناس، من ضرر يأجوج ومأجوج.

﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا﴾ ﴿97﴾

(فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ) أي: ففَعَلوا ذلك، فاختَلَط والتصَقَ بعضُه ببعضٍ، وصار حاجِزًا صَلْدًا مَنيعًا، واستحكَمَ استحكامًا هائلًا، فلم يَقدِرْ يأجوجُ ومأجوجُ على صعودِ ذلك الرَّدمِ فيَنزِلوا منه على النَّاسِ؛ لارتفاعِه ومَلاستِه، فهو مُستَوٍ مع الجَبَلِ، والجبَلُ عالٍ لا يُرامُ. موسوعة التفسير

(فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ) أي: فما لهم استطاعة، ولا قدرة على الصعود عليه لارتفاعه، ولا على نقبه لإحكامه وقوته. السعدي

(وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا) أي: ولم يَقْدِروا على خَرقِ ذلك الرَّدمِ مِن أسفَلِه خَرقًا يَنفُذُ بهم إلى الجِهةِ الأُخرى؛ وذلك لإحكامِ بنائِه، وصَلابتِه وشِدَّتِه. موسوعة التفسير

أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، عن رَسولِ الله ﷺ قال:(إنَّ يأجوجَ ومأجوجَ لَيَحفِرونَ السَّدَّ كُلَّ يَومٍ ، حتى إذا كادُوا يَرَونَ شُعاعَ الشَّمسِ، قال الذي عليهم: ارجِعوا فستَحفِرونَه غَدًا، فيَعودونَ إليه كأشَدِّ ما كان، حتى إذا بلَغَت مُدَّتُهم (المدَّةَ التي قُدِّرَت لهم) وأراد اللهُ أن يبعَثَهم على النَّاسِ، حَفَروا، حتى إذا كادوا يَرَونَ شُعاعَ الشَّمسِ، قال الذي عليهم: ارجِعوا فستَحفِرونَه غَدًا إن شاء اللهُ، ويَستَثني، فيعودونَ إليه وهو كهيئَتِه حين تَرَكوه، فيَحفِرونَه ويَخرُجونَ على النَّاسِ، فيُنَشِّفونَ المياهَ، ويتحَصَّنُ النَّاسُ منهم في حُصونِهم، فيَرمُونَ بسِهامِهم إلى السَّماءِ، فترجِعُ وعليها كهيئةِ الدَّمِ! فيقولون: قَهَرْنا أهلَ الأرضِ، وعَلَونا أهلَ السَّماءِ، فيَبعَثُ الله عليهم نَغَفًا (دودٌ يكونُ في أنوفِ الإبلِ والغنمِ) في أقفائِهم فيَقتُلُهم بها، فقال رسولُ الله ﷺ: والذي نَفسُ مُحَمَّدٍ بيَدِه، إنَّ دوابَّ الأرضِ لَتَسمَنُ وتَشكَرُ شَكَرًا (تسمَنُ وتمتلئُ شحْمًا) مِن لُحومِهم ودمائِهم) وصحَّحه الألباني في ((صحيح سنن ابن ماجه)).

﴿قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي ۖ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ ﴿98﴾

(قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي) أي: قال ذو القَرنَينِ: هذا الرَّدمُ الذي مكَّنَني اللهُ مِن جَعْلِه حاجزًا بينَ يأجوجَ ومأجوجَ وبينَ الإفسادِ في الأرضِ؛ رَحمةٌ مِن رَبِّي بالنَّاسِ. موسوعة التفسير

✉أن حال الخليفة الصالح، أنه إذا منّ الله عليه بالنعم الجليلة ازداد شكره وإقراره واعترافه بنعمة الله لقوله (هَٰذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي)، كما قال سليمان لما أحضر عنده عرش ملكة سبأ مع البعد العظيم (قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ...) [النمل :40]

(فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ) أي: فإذا جاء وعدُ رَبِّي الذي وقَّتَه لخُروجِ يأجوجَ ومأجوجَ مِن وَراءِ هذا الرَّدْمِ، جعَلَ اللهُ هذا الرَّدمَ مُنهَدِمًا مُستَويًا بالأرضِ. موسوعة التفسير

قال ابن كثير: تَقُولُ الْعَرَبُ: نَاقَةٌ دَكَّاءُ: إِذَا كَانَ ظَهْرُهَا مُسْتَوِيًا لَا سَنَامَ لَهَا وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا﴾ [الْأَعْرَافِ: ١٤٣] أَيْ: مُسَاوِيًا لِلْأَرْضِ.

(وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا) أَيْ: كَائِنًا لَا مَحَالَةَ. ابن كثير

إثبات يأجوج ومأجوج وأن خروجهما من علامات الساعة الكبرى: كما قال تعالى: (حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ * وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ) [الأنبياء: 96- 97].

وعن زينبَ بنتِ جَحشٍ رَضِيَ الله عنها، (أنَّ النبيَّ ﷺ دخَل عليها فَزِعًا يقولُ: لا إلهَ إلَّا اللهُ، وَيلٌ للعَرَب مِن شَرٍّ قد اقتَرَب؛ فُتِحَ اليومَ مِن رَدمِ يأجوجَ ومأجوجَ مثلُ هذه -وحَلَّق بإصبَعِه الإبهامِ والتي تليها- فقُلتُ: يا رسولَ الله، أنَهلِكُ وفينا الصَّالِحونَ؟ قال: نعم، إذا كَثُرَ الخَبَثُ (الفُسوقُ والفُجورُ). بخاري

ففي حديث النواس بن سمعان قال: قال رسول الله ﷺ: (.... فبينما هو كذلك إذ أوحى اللهُ إلى عيسى: إنِّي قد أخرجتُ عِبادًا لي لا يدانِ (لا قُدرةَ ولا طاقةَ) لأحَدٍ بقِتالِهم، فحرِّزْ عبادي إلى الطُّورِ، ويَبعَثُ اللهُ يأجوجَ ومأجوجَ، وهم مِن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلونَ (يَمشونَ مُسرِعينَ)، فيمُرُّ أوائِلُهم على بُحَيرةِ طَبَريَّةَ فيَشرَبونَ ما فيها، ويمُرُّ آخِرُهم فيقولونَ: لقد كان بهذه مَرَّةً ماءٌ! ويُحصَرُ نبيُّ اللهِ عيسى وأصحابُه، حتى يكونَ رأسُ الثَّورِ لأحَدِهم خيرًا مِن مائةِ دينارٍ لأحَدِكم اليومَ! فيَرغَبُ نبيُّ اللهِ عيسى وأصحابُه، فيُرسِلُ اللهُ عليهم النَّغَفَ في رقابِهم، فيُصبِحونَ فَرسَى كمَوتِ نَفسٍ واحدةٍ، ثمَّ يَهبِطُ نبيُّ اللهِ عيسى وأصحابُه إلى الأرضِ، فلا يَجِدونَ في الأرضِ مَوضِعَ شِبرٍ إلَّا ملأه زَهَمُهم (رائحتُهم الكريهةُ) ونَتْنُهم، فيرغَبُ نبيُّ الله عيسى وأصحابُه إلى اللهِ، فيُرسِلُ اللهُ طيرًا كأعناقِ البُختِ (نوع من الإبلِ) ، فتَحمِلُهم فتَطرَحُهم حيثُ شاء الله، ثم يُرسِلُ اللهُ مَطرًا لا يَكُنُّ منه بَيتُ مَدَرٍ ولا وَبَرٍ ، فيَغسِلُ الأرضَ حتى يتركها كالزَّلَفةِ (كالمرآةِ في صفائِها ونظافتِها) ، ثمَّ يقالُ للأرضِ: أنبِتي ثَمَرتَكِ، ورُدِّي بركَتَكِ، فيَومئذٍ تأكُلُ العِصابةُ مِن الرُّمَّانةِ، ويَستَظِلونَ بقِحْفِها ...) رواه مسلم .

(وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا) أي: وكان وَعدُ اللهِ عِبادَه بخُروجِ يأجوجَ ومأجوجَ في آخرِ الزَّمانِ وغيرِ ذلك مِن وُعودِه، كائنًا لا محالةَ. موسوعة التفسير

كما قال تعالى: (إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ) [الرعد: 31]

الإعلامُ بالدَّورِ الأُخرويِّ، وانقضاءِ هذا الطَّورِ الأوَّليِّ؛ لتبقى النفوسُ طامحةً إلى ذلك العالَمِ الباقي، والنَّعيمِ السَّرمديِّ. القاسمي